الوهم الصهيوني

تلخيص الدكتور محمد توفيق رمزي

نشرت مجلة « الاتلانتيك منثلى » هذا المقال فى فبراير سنة ١٩٤٧ . والكاتب هو المستر و . ت . ستاس فيلسوف يعرف المصاعب التى تواجه الموظف الحكومى. فعندما تخرج فى كلية ترينيتى فى دبلن التحق بخدمة الحكومة البريطانية وعين عمدة لمدينة كولمبو بسيلان . ولكن نداء القلم تغلب عليه فاستقال من عمله ليواصل الدرس والكتابة . واليوم نراه مؤلفا غزير الانتاج علاوة على عمله كاستاذ للفلسفة بجامعة برنستون الأمريكية .

(١)

فلسطين بلد صغير ولكن ما يعمل بها ينم عن حالة العالم أجمع . وأحب أن أوجه الانتباه للطرق التى تتبع فى حل هـذا المشكل لا إلى الحلول نفسها فحسب .

وسأحاول إثبات أن هذه الطرق خطرة ومدمرة ولو داومنا علي اتباعها فى حل مشاكل العالم الاخرى — وكل القرائن تدل علي ذلك — فالعنف والحرب سيكونان نتيجة صحيحة لذلك .

إن كان من ثمة سؤال أخلاقى للحرب العالمية الثانية فالسؤال هـو هل العلاقات الدولية ستسيطر عليها القوة أم القانون ؟ . ومعنى القانون هو تطبيق مبادىء العدل فى حل أى مشكل كان . لقد خرجنا من الحرب بنتيجة هى

أن العدل قد تغلب على القوة الغاشمة . ولكن نحن الآن في سلام فهل نرى أنتتبع العدل الآن أم القوة ؟

على الجواب يتوقف مستقبل العالم بل مستقبل الحرب أو السلام . وأرى من الأفق أن نمتحن بإمعان إحدى المشاكل المعقدة ونمتحن الطرق المتبعة في حلها لنعرف الاتجاه العام . وأرى أن فلسطين مثل مناسب جدا .

يظهر في أغلب الاحيان أن آراء الناس في المسائل السياسية والدولية تبنى باستمرار على ميولهم الخاصة وبندر ماتكون تلك على أساس من الحكمة وهذا أول سبب للحروب وسفك الدماء . فالحق أن الميول الخاصة التي لايتحكم فيها العقل المتزن تؤدي حتما إلى استعمال القوة . والمنطق هو أساس الديمقراطية والعدل لانه يزن المسائل بدقة وبلاتحزب والحروب لن تنتهي حتى يتعلم الناس كيف يقيمون آراءهم في المسائل الدولية وأفعالهم على أساس من الحق لايشوبه أي تحيز .

وفلسطين مثل صريح للنقطة التي نحن بصددها . فليس اليهود والعرب ملتهبين بنار العاطفة التي يسمونها وطنية فحسب بل إن الدول العظمى التي لها صلة بالمشكل والتي كان ينتظر منها أن تتوخى العدل والصواب في دراسة الموضوع ومحاولة حله — لاتحاول الحكم في هذا النزاع بلا تحيز . وهكذا نرى كلا من هذه الدول العظمى تحاول النظر إلى المشكل من وجهة المنفعة الشخصية واتخذوا من المسألة الفلسطينية ذريعة لزيادة سلطانهم . وأسوأ من هذا للحصول على أصوات الناخبين في مسائل داخلية بحتة .

والحقيقة أن كل محاولة لتطبيق مبدأ العدل على النزاع الفلسطيني لابد وأن تكون محفوفة بمصاعب كبيرة . لأنه بما أن العدل تصور خلقي فلا يمكن للأنسان أن يصدر فيه حكما مالم يحدد ماهو الصواب وما هو الخطأ . ولو فعلنا ذلك لأرتفعت الأصوات بالاحتجاج ضدنا بدعوى أننا نتحدث من الناحية

العلمية النظرية بدون أن نكون واقعيين مواجهين للحقائق العملية !

إن الحالة في فلسطين تتغير بسرعة حتى ليخيل لنا أنه من المستحيل أن نقول عنها شيئا ونضمن عدم تغييره في بحر شهر واحد تبعا للحوادث. وإذن لم يبق أمامنا إلا دراسة المسألة من وجهة العدالة فذلك إدعى للاستقرار فان مبادىء العدل والقانون لاتتغير بنفس السرعة . فكما نص في الميثاق الأطلنتي تقضي العدالة الدولية بأن لكل شعب تحديد مصيره وتدبير أموره الداخلية بدون أي اعتداء أو تحرش من أي شعب خارجي كان . وليس ذلك بمبدأ جديد اخترعه روزفلت وتشرشل فقد كان ذلك هو الأساس الذي بنى عليه الرئيس ويلسون سياسته والذي كان من نتاجه عصبة الأمم. وهو أيضا الأساس الذي تقوم عليه الديموقراطية . ونرى بناء عليه أنه لايحق لأقلية ما أن تفرض إرادتها على الأغلبية . إذ أن في ذلك اعتداء صارخا على مبادىء العدل والديموقراطية وحرية تحديد المصير . بل فيه تعسف جائر .

(٢)

ووجهة النظر العربية هى أن العرب يكونون الأغلبية العظمى من سكان فلسطين منذ نيف وألفى سنة .

وهم على حق فى معارضتهم لمبدأ الهجرة اليهودية . والقضية العربية تقوم على أساس من العدل الدولى فما دام للاغلبية من سكان فى بلد ما الحق فى تقرير مصيره نرى اذا أن فى محاولة صهيونى الانجليز والامريكيين فرض الهجرة اليهودية على العرب اعتداء ظاهر لا على العرب فحسب بل على مبادىء العدل الدولى وحق تقرير المصير والديموقراطية .

وليس لاحد أن يعترض قائلا إن العرب مخطئين فى رفضهم للهجرة اليهودية أو أنه من واجبهم أن يسمحوا بهجرة اليهود نظراً لما عانى هؤلاء من عذاب وامتهان إذ أن مبدأ العدل الذى بينته آنفا يحلل للعرب أنفسهم أن يقرروا ما يجب فعله . وهذه البديهية تظهر بجلاء لو ضربنا مثلا يمس حياتنا الشخصية فى أمريكا . فنحن الامريكيين نمنع هجرة غير القوقاسيين (أعنى الاجناس البيضاء فقط) الى بلادنا . فلو فرضنا أن هناك قوة دولية عظمى يمكنها املاء ارادتها علينا وغصبنا على قبول هجرة العناصر غير البيضاء إلى بلادنا افلا نعتبر ذلك اعتداء جائرا على حقوقنا ؟ علينا أن نتوخى العدل فى أنفسنا ونسلم بوجهة النظر العربية بلا اعتراض أو نقاش ففى ذلك احترام للعدل الدولى .

(٣)

ماذا يقول الصهيونيون فى هذا ؟ إن قضيتهم تستند إلى خمسة أدلة ، ويجب أن نمتحن تحليليا واحدة بعد أخرى لنرى ما فيها من خطأ أوصواب .

فالحجة الاولى . هى أن فلسطين كانت أرضاً لليهود فى العصور القديمة وانهم لم يتركوها بمحض ارادتهم بل أكرهوا على تركها ولذلك يدعون أن لهم الحق فى دخولها مرة ثانية . وهذا ادعاء باطل لانه ليس لامة الحق فى الارض التى تملكها إلا بطول الاقامة . والا تساءلنا أى حق لنا نحن الامريكيين للعيش فى هذه الولايات المتحدة وامتلاكها وتقرير مصيرها :!! اللهم لا حق لنا على الاطلاق الا أننا نقيم فيها منذ ثلثمائة عام تقريبا !!! أفان كان هذا المنطق صحيحاً فى الولايات المتحدة أفلا يكون صحيحا فى فلسطين والعرب قد ملكوها وأقاموا فيها حوالى الالفى عام ؟؟

والحجة الثانية . هى أن بفلسطين آثاراً يهودية دينية مقدسة . أيعقل أن نتخذ من الشعور الدينى مبرراً للهجرة العامة ؟ . وهل هناك أى سابقة تاريخية تبرر ذلك حتى نعتمد هذا المبدأ اليوم اعتماداً على السوابق ؟ الجواب هو النفى الصريح . أوليست فلسطين مهبط رأس المسيح ؟ وهل يحق لمسيحي انجلترا وأمريكا النزوح إلى فلسطين اعتمادا علي هذه النظرية ؟ فرب معترض بأن الانجليز والامريكان لهم مواطن معترف بها واليهود لا يتمتعون بمثل هذه الميزة لانهم مشتتون فى أنحاء العالم . ومثل هذا الاعتراض يدل بوضوح علي التفكير المشوش المرتبك . وبالرغم من هذا سنشرح موضوع تشرد اليهود عند ما نأتى لتحليله ودراسته فى المكان المناسب من هذا المقال :

والحجة الثالثة . هى أن الحكومة البريطانية فى سنة ١٩١٧ وعدت اليهود بتسهيل إيجاد موطن لهم فى فلسطين ويجب إذاً تنفيذ هذا الوعد احتراما للعهود . والواقع أن هذا منطق خطأ أيضا لان الوعد الذى يبنى على غير

عدل بل على جور ظاهر لا يجب تنفيذه.

فمثلا لا يمكنك أن تبرر السرقة لانك وعدت إنسانا ما بأن تسرق . ولا يمكن لقاض أن يبرئك من جريمة السرقة اعتمادا على أنك وعدت وقانون الاخلاق يقضى باحترام الوعود والعهود !! ومن البديهى أن تصريح بلفور كان خطأ من مبدئه لانه لم يكن للانجليز أى حق اطلاقا أن يعدوا باعطاء ما لا يملكون ، بل كان عمل الانجليز هذا اعتداء صارخا على مبدأ العدالة الدولية وبذلك يسقط حق الصهيونيين فى المطالبة بتنفيذ تصريح بلفور ولو ألحوا فى تنفيذه لاصبحوا شركاء متعمدين فى الجرم .

والحجة الرابعة . هى مسألة تشرد اليهود وضيف اليها آلامهم المبرحة والتعذيب الذى انزل عليهم والعناء الذى يلاقونه حتى الآن . هذه معضلة تنصب على ضمير الانسانية بأجمعها وتسأل عنها كل أمة فى العالم وبخاصة الامم التى أنزلت النكال باليهود . ولكن شعورنا الانسانى وعطفنا على البشرية المعذبة لا يكسب اليهود أى حق أدبى خاص فى تملك فلسطين . ونظرة واحدة للقانون الاهلي تثبت أن الفرد المشرد أو الجائع أو المظلوم له حق أدبى فى أن ينقذ من حالته ولكن دعواه تنصب على الجماعة التى يعيش بينها وليست على فرد معين بالذات (اللهم إلا إذا كان هذا الشخص هو المتسبب فى الضرر) . نستنتج إذن أن الانسانية بأسرها مسئولة عن حل مشكلة اليهود ووضع حد لآلامهم وتعاستهم ولكن فلسطين ليست الحل . وبذلك يظهر أن الحجة الصهيونية الرابعة ان هى إلا حجة باطلة .

والحجة الخامسة . هى أن الهجرة اليهودية قد أفادت فلسطين فائدة عظمى وان المنتظر أن تعظم الفائدة لو زادت الهجرة اليهودية : مما لا شك فيه أن فلسطين تقدمت على يد اليهود وارتقت إلى درجة محسوسة ، ولكن السؤال هو هل يعد ذلك مبررا للهجرة الصهيونية ودليلا منطقيا فى صالحهم ؟

إن ضعف وجهة النظر هذه ظاهر إذ فيه تبرير مطلق للعدوان الدولى أو على أقل تقدير لاعتداء الشعوب القوية المتحضرة على الشعوب الأقل مدنية . فقد كان فى إمكان هتلر أن يدعى المقدرة على حكم فرنسا وانجلترا وأمريكا بطريقة أصلح وأدق مما كان سائدا فى تلك البلاد إذ ذاك بيد حكامها الوطنيين . وكان يمكنه أن يدعى ـ كما ادعى فعلا ـ أن فتوحاته إن هى إلا لصالح البشرية والعالم أجمع . فان بدت لك سفاهة هذه الحجة فامتحن مثيلاتها . فالانجليز قد برروا وجودهم فى الهند بحجة اصلاحها وإدخال الحضارة إليها . وموسوليني قال إنه فتح الحبشة ليزيل منها تجارة العبيد وليدخل عليها المدنية ...

(٤)

فلو قبلنا هذه الجدليات الشكلية لتخلينا عن مبدأ العدل الدولى الذى تدعى بأننا نحترمه وندين به ولسلبنا بحق الشعب الأكثر حضارة فى مصادرة حرية الشعب الأقل حضارة وفتحه عنوة واغتصابا . ويظهر لى أن هناك كل الخطر فى قبول هذا الإدعاء وأرى من الأفضل ألا نقبل فى فلسفة العلاقات الدولية مثل هذا المبدأ الذى يمكن بسهولة جدا أن يحور إلى تبرير كل اعتداء .

(٥)

إننى على تمام الاقتناع بتحليلى المنطقى لنقط القوة والضعف فى القضية الصهيونية التى تناولتها بالبحث فى هذا المقال . واستنتج بناء عليه أن قضية العرب صحيحة بلا نزاع وأن دعوى اليهود لاتقوم على أساس وتلك نتيجة يصل إليها أى محكم غير متحيز .

والحل ظاهر للعيان إذ يجب على جميع بلدان العالم التي تقل فيها كثافة السكان ـ مثل استراليا وكندا وبعض أجزاء الولايات المتحدة وفلسطين نفسها

وغيرهامن الأمم — أن تعيد النظر فى سياسة الهجرة حتى يتسنى لكل دولة أن تأخذ نصيبها من اليهود الذين يبحثون عن مأوى . وهذا فى نظرى هو الحل الوحيد . فلماذا لا نطبق هذا المبدأ ؟ الجواب أننا فى الولايات المتحدة وكندا واستراليا وانجلترا وغيرها من الأمم نحجم عن الاعتراف بالحق الاخلاقى البين الذى تفرضه علينا ظروف هذا المشكل . إننا لانريد أن نتحمل نصيبنا العادل من هذا العبء ، ووجدنا أن فلسطين بلد صغير بعيد عنا يسكنه قوم عزل من السلاح . لذلك جرنا عليهم وألقينا على كواهلهم كل العبء الذى كان يجب أن نشترك جميعا فى رفعه .

يقال إن اليهود يجوعون لكى يذهبوا إلى فلسطين بالذات . ويرفضون الذهاب إلى اى بلد آخر ، وفى ذلك دليل على رغبتهم الملحة فى الذهاب إلى هذا البلد ، ولكن هل من العدل أن نقبل رغبة أحد طرفى النزاع فى قضية ما ، كأساس محتم لفض هذا النزاع . واستنادنا على هذه الرغبة فى عدم تقييد لوائح الهجرة فى أمريكا وكندا واستراليا وانجلترا . إن هو إلا نفاق ظاهر . وما زلنا نذكر جيدا الامتعاض الذى أثرناه فى أمريكا عند ما أعلن المستر بيفن أننا نريد من انجلترا أن تفتح باب الهجرة إلى فلسطين ، لأننا لانريد إدخالهم فى أمريكا . وهذا طبيعى ، إذ أن الحق لطمنا فى وجوهنا وأظهر سوء نيتنا ونفاقنا . ولكن من البديهى أيضا أن كلام بيفن هذا ينطبق على انجلترا وامبراطوريتها بنفس القوة التى ينطبق بها علينا نحن الأمريكيين ، ويجب إذن أن نواجه الحق وهو أنه ما من أمة عظمى تريد إيواء هؤلاء المشردين . وعلى « السياسيين » « الواقعيين » « العمليين » أن يفهموا أن سياستهم هذه ستؤدى حتما إلى الحرب لا فى فلسطين وحدها بل فى العالم أجمع .

هل نريد حربا أم سلما ؟ إن أردنا السلام فهناك طريق واحد للحصول على ذلك ، بأن نمتنع عن حل المشاكل الدولية حلولا تعتمد على حيازة أصوات

الناخبين ، أو على المصالح النفعية الخاصة، والأطماع الشخصية والتحيز، بل وكل المشاعر المنحطة المستترة وراء كلمة الوطنية، وعلينا أن نتوخى حلولا تستند على العدل والمنطق الصحيح .

هذا هو درس فلسطين ، وهو درس ليس بمنفرد، بل له مساس تام بالعالم أجمع، فكما كانت ميادين القتال فى الحرب الأهلية الأسبانية سنة ١٩٣٦ أرض اختبار لطرق الحرب الايطالية والألمانية، فكذلك فلسطين اليوم بقعة اختبار لسياسة السلام العالمى . وأساليبنا المبنية على منطق خاطىء وتصورات مشوشة تظهر للعيان مقدار العبث المتسيطر على عقولنا عند ما نجمجع طالبين السلام .